

اللغة العربية في المنجز النقدي الاستشراقي قراءة في المفاهيم والأطر المرجعية

**The Arabic Language in Orientalist Criticism
A Study of Concepts and Referential Frameworks**

د/ علوي نور الدين

مخبر قضايا الأدب والثقافة الشعبية والترجمة

جامعة الجلفة

nouredine.alaoui@univ-djelfa.dz

تاريخ الاستلام: 18 / 07 / 2025 تاريخ القبول: 14 / 11 / 2025 تاريخ النشر: 2025/12/16

Abstract

The Arabic language is a fundamental component of the Arab-Islamic identity, a vessel that carries the Arab-Islamic heritage and a tool for thought, culture, and literature. It has been subjected to attacks from the West and, behind them, the Orientalists. To elaborate on this idea further, this research paper aims to shed light on the role played by the Orientalists in marginalizing the classical Arabic language from cultural and literary life, under the pretext of its difficulty in being used by speakers and its inability to keep up with modernity. This was driven by their desire to eliminate, weaken, and destroy its intellectual and religious heritage, while promoting the vernacular and using it as a tool for literary expression. However, their claims and lies did

المؤلف المرسل: الاسم الكامل: علوي نور الدين

البريد الإلكتروني: nouredine.alaoui@univ-djelfa.dz

not succeed, and they failed to achieve their goal. The classical Arabic language remained strong, preserving its beauty and immortality, and was not diminished by successive generations, unlike what happened to similar ancient languages, which have completely faded away from the mouths of their speakers.

Keywords: dialectal Arabic; Orientalism; Western criticism; Arabic language; Orientalists' attitudes.

الملخص

تعد اللغة العربية مقوما أساسيا من مقومات الشخصية العربية الإسلامية، ووعاء يحمل التراث العربي الإسلامي وأداة الفكر والثقافة والأدب. وقد تعرضت لحرب من لدن الغرب ومن ورائهم المستشرقين. ولبسط هذه الفكرة أكثر تأتي هذه الورقة البحثية؛ لتسلط الضوء على الدور الذي قام به المستشرقون في إقصاء اللغة العربية الفصحى من الحياة الثقافية والأدبية، بحجة صعوبة تداولها في أوساط المتكلمين، وقصورها عن مواكبة الحداثة، رغبة منهم في القضاء عليها وإضعافها ونسف تراثها الفكري والديني، والتمكين للعامية واتخاذها أداة للتعبير الأدبي، غير أنه لم يُكتب لادعاءاتهم وأكاذيبهم النجاح، ولم يتمكنوا من تحقيق غايتهم، وبقيت العربية الفصحى قوية محافظة على روعتها وخلودها، ولم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة التي انزوت تماما بين ألسنة مستعملها .

الكلمات المفتاحية: العامية؛ الاستشراق؛ النقد الغربي؛ اللغة العربية؛ مواقف المستشرقين.

1. مقدمة :

إن للغة قيمة جوهرية كبرى في حياة كل أمة، فهي لبنة حضارتها ووعائها، وأساس وحدتها، والترسنة الثقافية التي تحمي كيانها، وتكمن أهميتها في أنها أهم مميزات الجنس البشري، وتعد بمثابة الوسيلة الأساسية للتواصل بين البشر، مما يسمح لهم بمشاركة الأفكار والعواطف، وتهدف إلى فهم الثقافة والتقاليد والعادات، وتساعد على نقل الخبرات والمعارف والمنجزات الحضارية بمختلف صورها عبر الأجيال المتعاقبة. ولم تكن اللغة في يوم من الأيام مجرد أداة للتواصل والتعارف بين أبنائها، أو بينهم وبين الآخر ولم تكن مجرد وعاء فكري ثقافي أدبي محايد، وإنما هي كل ذلك في صميم استمرار حياة الأمة وتجسيد روحها المميزة لها. واللغة العربية تمثل مقوماً من أهم مقومات كياننا، وهي الحاملة لثقافتنا، والمكون لبنية تفكيرنا وحلقة الوصل التي تربط الماضي بالحاضر بالمستقبل، واستطاعت أن تستمر إلى اليوم، وما قُدر لها أن تحافظ على وجودها وعالميتها وانتشارها لولا نزول القرآن الكريم بها. فارتقت بما تملكه من خصائص متعددة وميزات عجيبة فريدة لغة عالمية يطلبها ملايين المسلمين في العالم، لارتباطها بديتهم وثقافتهم الإسلامية فكانت هذه المنزلة ذات الأبعاد الإنسانية والعالمية من أسباب ترسيخ أركانها وتقدير مكانتها. وهي ليست كائناً جامداً بل هي مرنة إلى أقصى حد، وكلما زاد عدد المتحدثين بها واختلفت بيئاتهم واتسعت الهوية بينهم، كلما ساعد هذا في تولّد لهجات وعاميات لها، وتعد العربية العامية هي أحد أشكال اللغة العربية، وتنفرد بخصائص نحوية وصرفية وصوتية ودلالية محدودة، كما إنها تستند إلى حد بعيد على ركائز الفصحى وتستعير كمّاً هائلاً من مفرداتها.

ولأن اللغة العربية تحتل هذه المكانة فقد حاربها خصومها وبخاصة المستشرقين، فوجهوا إليها سهامهم المسمومة، وعمدوا إلى كشف سر قوتها وانتشارها، وسعوا إلى إضعافها وإبعادها عن المشهد العلمي والأدبي والاجتماعي فنادوا تارة بتيسير نحوها والتجديد في شكل قواعده، وتارة بإحلال العامية بدلها. وانطلاقاً مما ذكر ارتأيت أن يكون موضوع البحث هو: موقف الاستشراق من اللغة العربيّة. قراءة في المفاهيم والأطر المرجعية.

وقد تمحورت إشكاليته فيما يلي:

تعد اللغة العربية إحدى مقومات الأمة، ومكوّننا أساسيا في هويتها، وقد اهتم بدراستها الباحثون من مختلف الأجناس رغبة منهم في معرفة مواطن تفوقها وأسرار قوتها، غير أن اهتمام المستشرقين خاصة كان لافتا للانتباه نظرا للخلفية الفكرية التي انطلقوا منها، ولأهدافهم الخسيسة التي سعوا إلى تحقيقها.

وقد انبثقت عنها جملة من التساؤلات حصرتها فيما يلي:

- ما المكانة التي تحتلها اللغة العربية. وما هي أهم الخصائص المميزة لها؟

- ما أثر العاميات على اللغة العربية الفصحى؟

- ما مفهوم الاستشراق. وما موقفه من اللغة العربية؟

- وما هي جوانب الإجحاف في الدراسات الاستشراقية ذات الصلة باللغة العربية

الفصحى؟

- كيف يمكن الرد على مثل هكذا دراسات اتجاه اللغة العربية؟

أما عن أهمية الدراسة فتنبع من كونها تتناول موقف المستشرقين من اللغة العربية، وتسعى إلى تحديد جوانب الإجحاف في الدراسات الاستشراقية ذات الصلة باللغة العربية الفصحى، وإبراز أهم المفاهيم التي انطلقت منها للمساس بالعربية، وكذا الإطار المرجعي الذي انبثقت منه. ولئن كانت هذه الدراسة تتماس مع الكثير مما سبقها من الدراسات السابقة، فهي لا تعدو أن تكون مجرد تعمق فيها. غير أنها تختلف عنها فيما يحفظ لها استقلالها، فهي تركز على تناول جوانب الإجحاف في الدراسات الاستشراقية، وتسعى إلى معرفة أثرها على الثقافة العربية ككل وعلى اللغة العربية بشكل خاص وذلك رغبة في استظهار خطورتها، طامحة إلى تقديم ما من شأنه أن يخدم اللغة العربية ويرفع من شأنها.

وقد سارت الدراسة في عمومها على ضوء المنهج التحليلي، لكونه هو الأنسب لعرض ومناقشة موقف المستشرقين اتجاه اللغة العربية. كما اعتمدت على المنهج الوصفي أثناء عرض خصائص اللغة العربية. وهذا التنوع في المناهج جاء رغبة في استجلاء الصورة.

2. الاستشراق (المفهوم والغايات):

تذهب جل الدراسات بأن الاستشراق يتمثل في الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وأدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام. وقد انحصر في كبار الباحثين والمفكرين ممن أتقنوا اللغة العربية وبرعوا في دراساتهم الشرقية. وبتعبير آخر هو ذلك الإنتاج العلمي الغربي الذي يعتمد مناهج وطرائق العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة في دراسة شؤون الإسلام والمسلمين. غير أن الملفت للانتباه هو أن الاستشراق قد تغير منحاه، حيث انتقل

من التركيز على الجانب الديني وفقط إلى تبني البعد الإيديولوجي الخالص. فهو تيار فكري تمثل في الدراسات المختلفة التي تتناول المجتمعات الشرقية، وتبحث في حضارتها وأديانها وآدابها ولغاتها وثقافتها بالدراسة والتحليل من قبل علماء الغرب. وفي هذا السياق يعرف إدوارد سعيد الاستشراق بقوله: « إن أسهل طريق لتعريف الاستشراق هو نوع من التبیین الأكاديمي لهذا الاصطلاح. وفي الحقيقة إن هذا المصطلح يستعمل في الجامعات والأوساط الأكاديمية لمن يدرس مواضيع الشرق، أو يبحث حول هذا الموضوع سواء كان متخصصا في علم معرفة الإنسان، أو في علم الاجتماع، أو مؤرخا، أو متبحرا في علم اللغة بمعناه العام أو الخاص. فهو مستشرق، ويطلق على عمله في هذا الاستشراق»¹. وفي هذا السياق نستحضر تصنيف مالك بن نبي للمستشرقين، الذي يرى أن ثمة صنف من ناحية الزمن، وصنف من ناحية الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين، طبقة المادحين للحضارة الإسلامية وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها»². وأما عن أهم خصائص هذه الدراسات الاستشراقية فإنها ذات ارتباط وثيق بالاستعمار الغربي وتهدف بالدرجة الأولى إلى التنصير، كما أنها تسهم بدرجة كبيرة جدا في صنع القرار السياسي في الغرب ضد الإسلام والمسلمين.

ومن هنا يمكن القول إن أهداف الاستشراق تنوعت وتعددت تبعا لتنوع دوافعه، فمنها ما هو استعماري ومنها ما هو سياسي، ومنها ما هو ديني ومنها ما هو علمي. وهذا يدعو إلى الجزم أن الاستشراق كان دعامة أساسية للاستعمار، وذلك لما بذله من جهود كثيفة من أجل تقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية الإسلامية، وإلى توهين القيم الإسلامية.

3. المستشرقون واللغة العربية:

أدرك المستشرقون أن اللغة العربية تمثل إحدى ركائز الحضارة العربية والإسلامية، فكرسوا جهودهم بمعية الاستعمار الذي فسح لهم المجال محاربتها وإضعاف دورها والتقليل من قيمتها، ومن أهم المزاغم والدعاوى التي ألصقت من طرفهم بالعربية نذكر ما يلي:

1-3-التشكيك في النحو العربي:

يعد علم النحو العربي أساساً لمنظومة علمية، عمد النحاة من خلاله إلى تقييد كافة الظواهر اللغوية في نظام اللغة العربية، مما حفظ لها دوامها في مآمن من اللحن والتزييف والتغيير³. وقد أدرك المستشرقون دور علم النحو وأهميته في حفظ اللغة العربية، وأدركوا أن أية محاولة لهدم اللغة العربية وإضعافها يجب أن يمر عبر التشكيك في هذا العلم، ومن ثمة الادعاء بصعوبته وعدم جدواه، فأشاعوا أن قواعد النحو العربي صعبة معقدة، تعيق الطالب والمتعلم عن تحصيل وتعلم اللغة. وردوا أصوله إلى أصول يونانية وسريانية ولاينية، فذهب بعضهم إلى القول بالتأثير اليوناني على النحو العربي ومنهم المستشرق الفرنسي ارنست رينان والمستشرق الهولندي فيرستيج والألماني هوفمان⁴. في حين ذهب البعض إلى التأثير الأجنبي على النحو العربي والتأسيس لعلاقة تاريخية بين النحاة العرب مع نظرائهم من السريان واليونانيين، كعلاقة أبو الأسود الدؤلي ويعقوب الدهاوي، وحنين بن إسحاق والخليل بن أحمد، وذهب البعض الآخر إلى وكما التشكيك في مصطلحات النحو العربي واعتبروها مصطلحات ذات أصول يونانية. كما يقول المستشرق رافي ظلمون: « إن النحو العربي في صورته التي وصلت إلينا

من خلال كتاب سيبويه قد تأثر بالأدب اللاتينية، وأن التنقيط بالإعجام أدخل على أيدي من استعمل الكتابة بالعربية في العراق وسوريا من يهود وسريان».⁵ ومما يزيد الطين بلة أن بعض الباحثين العرب يتبنون مثل هكذا أفكار، ومنهم على سبيل الذكر لا الحصر أنيس فريحة، الذي يرى بأن مجموعة القواعد والأحكام النحوية تقيد اللغة وتحدّ من نشاطها وتقف في مجراها الطبيعي، وتسدّ عليها الطريق كما حدث للغة العربية الفصحى، كما أن تقييد اللغة بأحكام مرهقة يوقف نموها، فتبقى حبيسة الكتب والمعاجم، ولكن لغة الناس تسير سيرها غير عابئة بالأحكام والشاهد على صحة هذا لغتنا العامية.⁶

وليس ثمة تفسير لمثل هكذا الدعاوى إلا القول إنها تمس كل ما هو عربي خالص، رغبة في التقليل من قيمة الجهود العربية المبذولة في مجال الإبداع وإتهام العقل العربي واعتباره عاجزا عن التفكير والإبداع وإنتاج المعرفة، هذه النظرة الإقصائية التي سادت في العصر الحديث تبناها المستشرقون يحدوهم في ذلك التعصب للثقافة اليونانية، منكرين فضل الحضارات الأخرى في ميدان الفكر والمعرفة والفلسفة والأدب.

وهذا ليس معناه أبدا أن ما قيل هو عين الحقيقة بل هو مجانب لها بالمطلق، فعلم النحو هو الذي حفظ اللغة، وصانها من اللحن والتحوير والتزييف، وفي إلغاء قواعده تضييع للغة العربية، وفي هذا السياق يقول محمود تيمور: «وفي معتقدي أنه لا سبيل لنا إلى التخلي عن النحو لأنه من مقومات اللغة وأصولها، فإذا تخيلنا

عنه، فقد هدمنا ركنا أساسيا، تعود بعده اللغة العربية فوضى تحتاج إلى ضوابط تحل محله»⁷.

2-3-الطعن في علم الإعراب:

يعد الإعراب من أبرز الظواهر التي ميزت بها اللغة العربية، وجعلتها محافظة على نصابها وتماسكها فهو القانون الذي يسير عليه المتكلم في بناء تأليفه وجمله، وبدونه يصبح الكلام مهملًا لا ينبئ عن مقصود، ولا يفصح عن مراد، وقد لقي اهتماما بالغًا من لدن النحاة العرب، فبحثوا في أسرارهِ وعِلله فاستوى عندهم درسا علميا قيما له أسسه وقواعده.

لكن في المقابل عمد المستشرقون إلى الطعن فيه والتقليل من قيمته، باعتباره أبرز ظاهرة من الظواهر المميزة للعربية؛ منتقدين المنهج الذي اتبعه النحاة قديما لدراسة الظواهر النحوية ناشدين تناول النحو العربي وفق قراءة لسانية جديدة ميسرة، ودعوا إلى إلغاء علم الاعراب، متأثرين بحجة أن لهجات الحديث عند العرب كانت منذ أقدم عصورها غير معربة، فأقروا بذلك بصعوبة النحو العربي بسبب الإعراب، وأنه موجود فقط في لغة الآداب شعرها وخطابها ونثرها.

ومن المفارقات أن آراءهم تباينت في أصالة هذا العلم، وسلكوا في ذلك مسالك عدة، فمنهم من شكك فيه وأعتبره من صناعة النحاة، ومنهم من أنكر وجوده أصلا في اللغة العربية. نذكر منهم على سبيل التمثيل لا الحصر بعض المستشرقين أمثال: كارل فولرز من خلال كتابه "اللغة الشعبية واللغة الأدبية في الجزيرة العربية القديمة". وباول كاله من خلال كتابه "الذخائر القاهرية". والمستشرق

الفرنسي كوهين صاحب كتاب "لغات العالم" وغيرهم. وفي مقابل هذا نجد فئة من المستشرقين الموضوعيين الذين احتكموا إلى المنطق والعقل، ولم يقعوا فيما وقع فيه أولئك من الافتراء على القرآن الكريم وعلى اللغة العربية بل أثبوا بالحجة أصالة الإعراب، واعتبروه سمة من سمات اللغة العربية، وأن العربية الفصحى في نظرهم احتفظت في ظاهرة التصرف الإعرابي بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية... ومنهم شيخ المستشرقين الألمان نولدكه تيودور، من خلال كتابه "مقالات جديدة في علم اللغات السامية". وكذلك المستشرق يوهان فوك في كتابه "العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب". والمستشرق بروكلمن كارل في كتابه "تاريخ الأدب العربي" الذي دافع بشدة عن قضية الإعراب وسفه قول فولرز المتعلق بالنص القرآني.

وحقيق بنا في ختام هذا العنصر القول إن نظام اللغة العربية نظام محكم، لا يقبل أي تغيير بداخله لأنه متكامل ومنسجم، ولهذا كانت حجج المستشرقين الذين أرادوا نفي الإعراب عن العربية مجرد افتراءات تاريخية، لا أساس لها من الصحة. وليس أدل على هذا أن آراء المستشرقين في قضية الإعراب في اللغة العربية تباينت إلى درجة التناقض، ولعل هذا يعد عاملا مهما، إذ يكفي أن يأتي الرد على من طعن في الظاهرة من بني جنسه، وبمن هو على مذهبه، فيكون ذلك أقوى في تثبيت الحجة.

ولاضير أن هذا مدعاة إلى وجوب عدم تجاهل ظاهرة الاستشراق، والحكم عليها بالفرض، بل يجب التعامل معها بموضوعية وعلمية وعرضها على مائدة البحث والدراسة واستخلاص النتائج والعبر ووضع الحلول واقتراح البدائل.

3-3-الطعن في ثراء اللغة العربية:

تتميز اللغة العربية بوفرة مفرداتها، وغزارة ألفاظها، فهي تشمل جميع الأصول التي تحتوي عليها نظيراتها في اللغات السامية⁸، بل وتزيد عليها بأصول كثيرة. والشواهد التي تثبت خصوبة الفصحى وثرانها كثيرة ومتنوعة، ناهيك عن ظروف المكان والزمان والأفعال والصفات التي يزخر بها المعجم العربي⁹، وفي المقابل ذلك لا نجد شئاً من هذا التقسيم في اللغات الأخرى إلا عبر التعريفات والاستعانة بالجمل والتراكيب المختلفة، فالعربية هي الأكثر ثراءً، حيث يوجد بها ستة عشر ألف جذر لغوي تفتح المجال واسعا للاشتقاق والترادف والنحت والتركيب والتعبير عن المعرفة التي يحتاج الإنسان إلى نقلها إلى الآخرين، وهذه الحقيقة تشكل أساساً لبناء القوة.

ومن المفارقات أن المستشرق أرنست رينان عد ظاهرة الثراء اللغوي أحد أسباب تخلف اللغة العربية حيث يقول: «إن الثراء الخارق للمألوف في المفردات العربية، يجر على هذه اللغة من المتاعب أكثر مما يوفر لها من الفوائد، فهو ينتهي إلى متاهات تجني كثيراً على الوضوح، وإن الإنسان ليشعر بما يشبه الدوار عندما يرى كل تلك المعاني المختلفة والمتضاربة تقريباً تزدهم في المعاجم العربية حول كل

لفظة»¹⁰.

4-3-الطعن في الفصحى والاهتمام بالعامية:

تمتاز لغات العالم بوجود الثنائية اللغوية، وهي تتجسد في مستويين اثنين؛ الأول المستوى الفصيح والثاني المستوى العامي، وهذا التنوع في اللغة في استعمالات الأفراد هو ما يسميه المختصون بالديكلوسيا أو الثنائية اللغوية. ونقصد هنا وجود العامية بجانب اللغة الفصحى، فالفصحى هي اللغة التي تستخدم في الإنتاج العلمي والأدبي شعرا ونثرا، أما العامية فهي تستخدم في الشؤون العادية وتلقائية متغيرة تتغير تبعا لتغير الأجيال.

وقد ظهر هذا المصطلح (Deglossia) أول ما ظهر عند الفرنسيين على يد العالم وليم مارسيه سنة 1930. وهو في مضمونه يعكس التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة. وقد نقل شارل فيرغسون هذا المصطلح إلى الإنجليزية في مقال نشره في مجلة (word) ليدل على شكلين مختلفين للسان نفسه، أي أنه تنافس بين تنوعين للسان واحد¹¹. أي أننا إزاء لغة فصيحة تتميز بالثبات والالتكاء على نظام معين يقعدها علم النحو تدون بها العلوم، تستخدم في الإنتاج العلمي والأدبي شعرا ونثرا. وعامية تمارس داخل هذا النظام يشوبها التغير من داخلها، وهي تلقائية متغيرة، لا تتقيد بضوابط محددة، وتستخدم في الشؤون العادية وتتغير تبعا لتغير الأجيال.

واللغة العربية لا تختلف عن غيرها من اللغات الأخرى في هذه المعضلة، ذلك أن ممارسة الفعل الكلامي ينشأ في ظروف معينة تربطه بمجموعته المباشرة، غير أنه لا يلبث أن ينجم عنه صراع بين اللغة الفصحى ولهجاتها، ينتهي بالاتفاق على

تشكيل نظام لغوي من خلاله تمارس مختلف المجموعات أداء اللغة تلبية لحاجاتها التواصلية، فحاجة المجتمع الى التعبير عما يصادفه من تحديات أوجد خروقات جديدة يتعين على النظام اللغوي استيعابها واحتوائها، وإلا يتعين حالة من الممارسة تعيش خارج النظام، فيقع الانفصام بين الممارسة والنموذج العام، كما هو الشأن بين العامية والفصحى. وهذه الحال هي التي دفعت بهادي نهر إلى القول: « أن العربية دخلت في صراع داخلي مع نفسها، حيث تعددت لهجاتها بفعل اختلاف البيئات العربية، وما صاحبه من اتجاه الألسنة إلى الاختلاف بين القبائل في النطق، وقد ازداد هذا الخلف بتفرع القبائل حتى وصل إلى الألفاظ بمعانيها، فكان ذلك إيذانا بتعدد اللغة المشتركة إلى لهجات، يبتعد بعضها عن بعض بظواهر عديدة منها الصوتي ومنها الدلالي ومنها التركيبي، ومازالت اللهجات تتصارع حتى كتب للقرشية التغلب آخر الأمر لأسباب هيأت لها سبيل النصر».¹²

وقد اعتبرت هذه الظاهرة اللغوية في نظر بعض المستشرقين مشكلة من المشكلات التي تعترض اللغة العربية، وانهزوا هذه الفرصة واعتنوا باللهجات العربية دراسة وبحثا، ودعوا إلى هجر الفصحى وإحلال العامية واعتبارها لغة بديلة عنها¹³، وكان هدفهم من وراء هذا المخطط هو غرس شعور مدمر بين أوساط أفراد المجتمعات العربية مفاده بأن اللغة العربية الفصحى هي لغة معقدة القواعد، صعبة التعليم¹⁴، كثرة الشذوذ في مسائلها وقضاياها، وتجعل من تعلمها عبئا ثقيلا على أهله، ولم يكن مقصدهم من إظهار هذه الهوة سوى فرض العامية وتغيبب الفصحى عن ساحة الثقافة والفكر.

ويعد كتاب "قواعد اللغة العامية في مصر" الذي صدر سنة 1880 للمستشرق لولهلم سبيتا، من أوائل الكتب التي تبنت فكرة ووضع القواعد للعامية واعتبارها لغة للعلوم والفنون والآداب تمهيدا لاعتمادها لغة رسمية، كما اقترح أيضا فكرة تبني الحروف اللاتينية لكتابة العامية، تلك الحروف التي نودي باستخدامها فيما بعد للكتابة العربية الفصحى. وذات الفكرة تبناها المستشرق كارل فولرس الألماني الذي سار على نهج سلفه "سبيتا". وحمل على العربية ووصفها بالجمود والصعوبة¹⁵ والضعف وشبهها باللاتينية المنقرضة. وجاء بعده المستشرق سيلدون ولمور الإنجليزي الذي بذل جهدا كبيرا من أجل التمكين للعامية بحجة صعوبة الفصحى.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ثمة عددا لا يستهان به من الباحثين العرب حذوا حذو المستشرقين في تحبيب العامية¹⁶ إلى الناس ونبذ العربية الفصحى. عمدوا إلى إنجاز مؤلفات ودراسات تتناول العامية وتقف على خصائصها وأساليبها وقواعدها وتبرز أهميتها، نذكر منهم من باب التمثيل لا الحصر عيسى إسكندر المعلوف الذي كتب مقالات عدة عن اللهجة العامية في مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة وقد زعم أن من الممكن اتخاذ أي لهجة عامية كالمصرية¹⁷ والشامية، كما زعم أن تعلق المسلمين باللغة العربية لا مسوغ له. وكذلك سلامة موسى الذي اشتهر بعدائه للإسلام وللعربية، معتبرا إياها لغة بدوية رجعية متخلفة، يعد من أبرز الداعمين للعامية بدعوى تجديد الأدب العربي. مدعيا أن الأدب ينبغي أن يكتب بلغة الشعب لأنها تعبر عن همومه وقضاياها. وهذه المزاعم وغيرها ما هي إلا تبني لمخطط المستشرقين ليس إلا. فهو قد أيّد أفكار المستشرق ولكوكس الذي يرى أن: «الهم الكبير الذي يشغل بال السيد ولكوكس بل يقلقه، هو هذه اللغة التي

نكتبها ولا نتكلمها، فهو يرغب في أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية فنؤلف فيها وندون بها آدابنا وعلومنا».¹⁸ وقد سار على المنهج زكي نجيب محمود، الذي دعا إلى تبني عاميات يباشرون بها حياتهم اليومية بدل الفصحى، التي صارت لا تصلح في نظره للتعبير عن شؤون واهتمامات المجتمع.

وإذا لابد من التعقيب على هذه الفكرة فإننا نقول: أن الدعوة إلى تغليب اللهجات العامية كان هدفه بالأساس هو إحداث القطيعة بين الإنسان العربي ودينه وتاريخه وموروثه الحضاري، ليسهل السيطرة على العالم العربي، ولا يكون ذلك إلا بهدم اللغة العربية. يقول عباس محمود العقاد في هذا الصدد: «تعرضت هذه اللغة وحدها بين لغات العالم لكل ما ينصب عليها من معاول الهدم، ويحيط بها من دسائس الراصدين لها، لأنها قوام فكرة وثقافة وعلاقة تاريخية لا لأنها لغة كلام وكفى».¹⁹ وقد فشلت كل تلك الدعوات الاستشراقية الهدامة، بفضل ما بذله الغيورون من جهود في سبيل الدفاع عن العربية، والوقوف في وجه هذه الهجمة الشرسة التي تضاهي في خطورتها هجمة الاستعمار في هدم ماضي الأمة وسلخها من تاريخها، مقتنعين تماما أن ليس للعامية مكان تزاخم فيه الفصحى أبدا وأنه من الخطأ أن نعقد مقابلة بينهما، ذلك أن العامية وإن انتشرت لا يمكن أن تكون قسيما لغويا للفصحى.

3-5-الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية:

سعى المستشرقون إلى الترويج بأن هنالك صعوبة في تعلم اللغة العربية الفصحى، وصاحبت دعوتهم إلى العامية، دعوة أخرى وهي محاولة الاستغناء عن الحرف العربي الحامل للغة الفصحى، وإحلال الحرف اللاتيني مكانه بحجة التجديد والتيسير، وأن ذلك لا يكون إلا بتيسير صورة الكتابة العربية وذلك بتغيير

صورة الحرف العربي كلية، أو صورا منها. وقد بدأت الدعوة إلى ذلك في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ومن المستشرقين الذين تبنوا هذه الفكرة نذكر من باب التمثيل المستشرق ولهم سبيتا في سنة 1880م، وكارل فولرز في سنة 1890، وسيلدون ولمر في سنة 1901 وغيرهم. وقد سار على نهجهم بعض الباحثين العرب منهم على سبيل الحصر عبد العزيز فهمي باشا الذي دعا بقوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية، من خلال كتابا له سماه "الحروف اللاتينية لكتابة العربية". وداود الحلبي الموصلبي سنة 1905 الذي دعا إلى استعمال الخط اللاتيني في كتابة اللغة العربية وحجته أن الحروف العربية بها نقائص منها كثرة أشكال الحرف الواحد وعدم تدوين الحركات في سياق الكلمة، وكثرة النقط في الكلمة الواحدة. في حين دعا ميشيل ملوك سنة 1946 للتدوين بالحروف اللاتينية، ورأى أن يقتصر التدوين على الصوامت والحركات الطوال. ولكن هذه الدعوة لم تجد أي قبول لدى أوساط المثقفين العرب، ولم تحقق نتائجها، ولم تحظ بالانتشار وفشلت فشلا ذريعا، وبقيت اللغة العربية شامخة قوية محافظة على الحرف العربي الناصع.

3-6- قصور اللغة العربية في مواكبة الحداثة:

إن اتساع الفجوة بين العالم العربي والعالم الغربي في مجال التقدم التكنولوجي والعلمي كان عاملا أساسيا في اتهام العربية الفصحى بأنها لغة عاجزة عن مواكبة متطلبات العصر الحديث، في كونها لا تستوعب المصطلح العلمي الحديث، وغير قادرة على استيعاب ألفاظ الحضارة الحديثة، واهمومها بأنها لغة جامدة وميتة مثلها مثل اللغة السنسكريتية واللغات اللاتينية القديمة. وفي مقابل

هذا قدموا كثير الثناء على العامية وعلى اللهجات العربية المختلفة، ووصفوها بالمرونة والسهولة والقدرة على التعبير عن المتطلبات الحديثة واعتبارها وسيلة تثقيف ناجعة.

إن هذه الدعوة مردودة على أصحابها لأنها لا تتأسس على أرضية علمية صادقة، فمن يدعو إلى نبذ الفصحى والكتابة بالعامية، لهُوَ أحد الصنفين؛ صنف أول حاقده على الفصحى وكتابتها الكريم ودينها الخالد ويريد هدم الدين عن طريق هدم لغته، وهذا ضلّ سعيه، صنف ثان جاهل بسرّ العربية وما فيها من قدرة بارعة في التعبير عن الفكر. ويكفي أن الواقع اللغوي يدحض هذه الفرضيات، فليس هناك ما يسمى بلغة العلم ولغة التخلف، بل إن كل لغة من اللغات تمتلك في ذاتها احتمالية أن تكون لغة علم، ومناطق ذلك هو سعي أهلها إلى أن إيصالها إلى مصاف العالمية من خلال جهودهم العلمية والرقى بها. ولا يتحقق هذا إلا بتوافر وعي عميق عند سدنة العربية، يتطلب بالضرورة ضبط الرؤية العلمية الدقيقة للتطور الحاصل في مختلف المجالات العلمية بالإضافة إلى معرفة عميقة بأسرار اللغة العربية ومواطن قوتها. وهذا من شأنه أن يرفع من شأن لغتنا ويفتح أبواب الاستفادة من الحضارة ثم المشاركة في بناء مستقبلها.

4. الخاتمة:

لا ينبغي بأي حال من الأحوال تصديق زخارف أقوال المستشرقين ودعاياتهم الباطلة، في أنهم على الحياد أو أنهم طلاب علم ومعرفة، فالتاريخ والواقع أثبتا خلاف ذلك، فكل المحاولات اليائسة التي قاموا بها الرامية إلى الاستغناء عن اللغة العربية الفصحى لم يكتب لها النجاح، وباءت بالفشل الذريع وما الدعوة إلى تمكين العامية والنهوض بها إلا ذريعة واهية تخفي وراءها مكائد خطيرة، كان

الهدف منها ولايزال دحض اللغة العربية ورميها بالضعف والوهن. ولكنه وعلى الرغم من كل الهجمات فإن العربية تبقى لغة العلم والحضارة وقادرة على أن تسير التطور الحاصل. وقد خلصت دراستنا إلى مجموعة من النتائج والتي يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

-الاستشراق ظاهرة لها ثقلها على الفكر العربي والإسلامي، لذلك وجب إعادة قراءة المنتج الاستشراقي قراءة موضوعية علمية متوازنة فاحصة، بعيدة من جهة عن التأثير والانبهار، ومن جهة أخرى عن الانغلاق والاستهجان، تنهج منهج الانصاف والاعتدال، من أجل توطيّن ما يتلاءم وهويتنا الثقافية، وإثراء معارفنا والغوص في أغوار تراثنا والكشف عن جمالياته.

-للمستشرقين اليد الطولى في دراسة اللغة العربية وآدابها وتحقيق مخطوطاتها وجمعها ونشرها وترجمتها.

-كان لبعض المستشرقين الكثير من الإيجابيات، فاتصفوا بالإنصاف والاعتزان في آرائهم ومواقفهم اتجاه الإسلام والتراث العربي الإسلامي واللغة العربية، وتوجيه هدفهم للاطلاع والبحث والدراسة والتنقيب فيهما والاستفادة منهما، وكانت لهم جهود واضحة في خدمة الحضارة الإنسانية.

-أما أغلب المستشرقين فقد كانت لهم سلبيات كثيرة، تمثلت في الطعن في التراث العربي والإسلامي ووسموه بالقصور والتخلف، والمساس باللغة العربية، وادعوا أنها لغة رجعية تهتم بالذكريات والأقاصيص الطويلة النادرة. ومن ثمة فهي ليست لغة العلم والفن، فهي عاجزة عن الوفاء بمتطلبات العصر وغير قادرة على مواكبة التقدم التكنولوجي.

-ويكفي أن نقول للرد على هؤلاء المستشرقين أن دراساتهم التي طعنت في اللغة العربية هي دراسات مشوهة ومسمومة، وادعاءات لا تستند إلى حجج عقلية ولا

علمية، ولا إلى مصادر موثوقة من التراث الأدبي، وأن غرضها تفتيت وحدة المسلمين بالقضاء على لغتهم الأم التي تجمعهم وتوحدتهم.

-ستبقى اللغة العربية واحدة من أكثر لغات العالم انتشارا، وإحدى ركائز الحضارة الإنسانية، وهذا ما يستوجب على أهلها وسدنتها أن يستوعبوا مكانتها وأهميتها، وأن يعوا ما تشكله من خطورة على الآخر الذي يبذل قصارى جهده من أجل محاربتها وإبعادها عن الساحة العلمية والأدبية والثقافية من خلال ما يحاك لها من طرف التيارات التغريبية من أساليب تحريف أهل العربية وإبعادهم عن مقوماتهم وجعلهم يتصلون من أقوى مقوم لهويتهم لينهزموا أمام اللغات الأجنبية الأخرى.

7. الهوامش

- 1 - إدوارد سعيد، الاستشراق، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1995، ص: 16
- 2- مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1969، ص 5
- 3 - محمود تيمور، مشكلات اللغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة مصر، 1998، ص: 16
- 4 - محمد خليفة حسن أحمد، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 1997، ص: 114
- 5- اسماعيل أحمد عمارة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، دار حنين، عمان، 1992، ص: 91
- 6- أنيس فريحة، نحو عربية ميسرة، دار الثقافة، بيروت لبنان، 1955، ص: 27
- 7- محمود تيمور، مشكلات اللغة العربية، المرجع السابق، ص: 16

- 8 - علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، نهضة مصر، مصر، ط1، 1907، ص: 168، ويُنظر: اسماعيل أحمد عمارة، خصائص العربية في الأفعال والأسماء، دار الملاحى للنشر والتوزيع، اربد الأردن، ط1، 1987، ص: 41.
- 9 - أحمد بن نعمان، التعريب بين النظرية والتطبيق، دار الأمة الجزائر، الجزائر، 1998، ص: 472.
- 10 - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
- 11 - محمد عيساوي، التأشيرات الاستشراقية في سيرة اللغة العربية الفصحى، مجلة تاريخ العلوم، جامعة المسيلة، العدد 7، مارس 2017، ص: 304.
- 12 - هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، الجامعة المستنصرية، بغداد العراق، 1988، ص: 135.
- 13 - محمود شاكر، أباطيل وأسمار، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2005، ص: 147، ويُنظر: عبد الرحمن الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم، دمشق، ط8، 2000، ص: 301.
- 14 - نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدّعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار المعارف، مصر، ط1، 1964، ص: 21.
- 15 - محمود شاكر، أباطيل وأسمار، المرجع السابق، ص: 164.
- 16 - المرجع نفسه، ص: 147.
- 17 - المرجع نفسه، ص: 165.
- 18 - المرجع نفسه، ص: 147.
- 19 - عباس محمود العقاد، اللغة الشّاعرة، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ت، ص: 9.

5- قائمة المراجع

- 1- أحمد بن نعمان، التعريب بين النظرية والتطبيق، دار الأمة الجزائر، الجزائر، 1998.
- 2- إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، 1995.
- 3- اسماعيل أحمد عمارة، خصائص العربية في الأفعال والأسماء، دار الملاحى للنشر والتوزيع، اربد الأردن، ط1، 1987.

- 4-اسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، دار حنين، عمان، 1992
- 5-أنيس فريحة، نحو عربية ميسرة، دار الثقافة، بيروت لبنان، 1955
- 6-عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ت
- 7-عبد الرحمن الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، دار القلم، دمشق، ط8، 2000.
- 8-علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، نهضة مصر، مصر، ط1، 1907
- 9-مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1969
- 10-محمد خليفة حسن أحمد، أثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الاسلامية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 1997
- 11-محمد عيساوي، التأشيرات الاستشراقية في سيرة اللغة العربية الفصحى، مجلة تاريخ العلوم، جامعة المسيلة، العدد 7، مارس 2017
- 12-محمود تيمور، مشكلات اللغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة مصر، 1998
- 13-محمود محمد شاکر، أباطيل وأسمار، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2005
- 14-نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامة وآثارها في مصر، دار المعارف، مصر، ط1، 1964
- 15-هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، الجامعة المستنصرية، بغداد العراق، 1988